

3. العقلانية والمثالية

ترتبط الفلسفة أشد الارتباط بمفهوم العقل ، وقد تطور مفهوم العقلانية بالتزامن مع تطور الفلسفة، ويعد مفهوم العقل مكانا محوريا له في تاريخ الفلسفة والفكر بعامة، وفي هذا السياق يبرز تيار العقلانية والمثالية كأحد أكبر و ابرز التيارات الفلسفية التي تضم أهم وأشهر النظريات والمذاهب الفلسفية.

لكن السؤال يطرح هنا أولا حول مفهوم العقلانية ومفهوم المثالية وعن العلاقة بينهما التي تجعل منهما يشكلان تيارا فكريا واحدا.

العقلانية: العقلانية من العقل ، وهو مذهب فلسفي يؤكد أن العقل هو المصدر الأساسي للمعرفة، وأن هذا العقل مستقل عن التجربة الحسية. وهو يأتي في هذا السياق كمذهب معارض من حيث مصدر المعرفة منطلقاتها ونتائجها مع المذهب التجريبي أو المادي. تقوم العقلانية بالأساس هذا المذهب، على مبادئ استدلالية واستنتاجية، معطية الأولوية للمنطق للوصول إلى الحقائق الكونية. وهو مبدأ يرى بأن العقل يمتلك معارف قبلية تسبق التجربة الحسية والواقع المادي. وتطورت العقلانية مع الفلسفة اليونانية وخصوصا أفلاطون وسقراط وأرسطو، ثم اكتسبت صيغتها وتعريفها الذي نعرفه به اليوم مع فلاسفة التنوير والحداثة من قبيل ديكارت ، لايبنتز ، سبينوزا ، هيغل وغيرهم.

المثالية: من المثل ، أي الشكل الأفضل للشيء ، وما يجب أن يكونه ، ومن هنا مرتبط المثالية بالعقلانية، فالأخيرة تقول بإمكانية التوصل الى الحقائق والمثالية أن يكون بواسطة التمسك بالمبادئ الصحيحة للعقل(المنطق)، والقيم (الأخلاق). فالمثالية هنا تصبح مدرسة فكرية فلسفية ترى أن الواقع يُبنى أساسًا بواسطة العقل أو الفكر أو التمثيلات الذهنية، وليس بواسطة المادة. وخلافًا للمادية، تُخضع المثالية الوجود الموضوعي للوعي. وتتجلى في صور ذاتية

(حيث لا يوجد العالم إلا في العقل) أو صور موضوعية (حيث الأفكار حقيقية ومستقلة).
فالمثالية حيث تجاوز للواقع المحسوس نحو عوالم الما يجب أن يكون. ولها ارتباط وثيق
بالعقلانية يصل حد التماهي في عديد الاحيان، لاعتمادهما نفس مصادر المعرفة ونفس
المناهج والمنطلقات والغايات.

وفي اطار تيار المثالية تبرز عدة مذاهب ومدارس ونظريات أبرزها:

- المثالية الموضوعية (Objective Idealism): تعتقد أن الأفكار موجودة بشكل مستقل عن
العقل البشري، كما في فلسفة أفلاطون (عالم المثل). وتفصل بين عالمين ، عالم المعقولات أو
المثل وفيه توجد الحقيقة الموضوعية الكلية، وعالم المادة والمحسوسات، وهو عالم الوجود
المتغير والزائف.

- المثالية الذاتية (Subjective Idealism): وتسمى أيضا باللامادية ، حيث يتم تصور العالم
المادي على أنه مجرد تجسد للموجودات العقلية ، وترى أن وجود الأشياء مشروط بإدراك
العقل لها، كما يقول (جورج بيركلي). وتتميز المثالية الذاتية بقولها بالعقل الفردي، الذي
يصبح هنا مقياس الوجود، وليس العقل الكلي مثلما يكون الحال في المثالية الموضوعية.

- المثالية المتعالية (Transcendental Idealism): التي أسسها إيمانويل كانت، وتركز على
بيان حدود العقل الذي ينظم التجربة الواقعية. فهذه المثالية لا ترفض التجريبية بالمطلق، بل
تعمل على تحديد مجال عمل العقل بدقة من خلال التفريق بين عالم الظواهر (الفينومين)،
وعالم الموجودات في ذاتها (النومين)، وتحصر قدرة العقل البشري في التعامل مع عالم
الظاهريات.

ملاحظة : مفهوم العقل مفهوم مختلف فيه فلسفيا بين مختلف المذاهب الفلسفية والفكرية،
والجدل الحاصل يدور بين تيارين أساسيين: التيار العقلاني والمثالي ، يقول بوجود العقل كملكة
متعالية تميز الانسان عن سائر المخلوقات. وبين التيار المادي الذي يرى بأن العقل هو أحد

قدرات الانسان التي تتجسد في وعيه وذكائه المتميز ، وغالبا ما يربط التيار المادي العقل بعضو الدماغ ، بينما في التيارات المثالية والعقلانية فلا يوجد مكان محدد للعقل ، فهو يمكن ان يكون في كل الجسد ، او منفصلا عنه ، او في أحد اعضاءه مثل القلب أو اليد ...

نماذج عن نظريات العقلانية :

عقلانية أفلاطون

عقلانية أفلاطون ترتبط بنظريته في عالم المثل، حيث يقسم الوجود الى اثنين ، عالم المثل والمعقولات وهو عالم الحقائق، وعالم المحسوسات وهو عالم التغير والزيف، وعليه فالعقلانية هي القول بأن العقل (اللوغوس) هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة، التي تتفوق على الحواس. وهي تستند إلى نظرية «المثل» التي ترى أن الحقيقة الحقيقية هي عالم معقول، ثابت وعقلاني، متميز عن العالم الحسي الزائل. ويولي هذا الفكر أهمية خاصة للجدل والمنطق والمعرفة الرياضية.

أسس العقلانية الأفلاطونية

نظرية المثل : يعتقد أفلاطون أن العالم المحسوس الذي نعيش فيه هو مجرد "ظلال" أو نسخ ناقصة لعالم حقيقي مفارق (عالم المثل) يوجد فيه الجوهر الحقيقي للأشياء (مثل الجمال، العدالة، الخير).

المعرفة تذُكر : يرى أفلاطون بفكرة المعرفة القبليّة ، حيث أن النفس خالدة وكانت تعيش في عالم المثل قبل اتحادها بالجسد، وبالتالي فإنّ التعلم هو "استنكار" للمعرفة الفطرية المدفونة في النفس، وليس اكتساباً من العالم الخارجي.

دور العقل والحواس: يُقدم أفلاطون العقل على التجربة، مؤكداً أن "عين البصيرة" (العقل) لا تدرك الحقائق إلا عندما تضعف "عين الجسد" (الحواس) أو يتم تجاوزها.

المنهج الجدلي: هو الطريقة العقلية الأعلى التي يستخدمها الفيلسوف للارتقاء من المحسوسات إلى المعقولات، ومن الأفكار الجزئية إلى المبدأ الكلي (الخير)

العقلانية الديكارتية

رينيه ديكارت أسس العقلانية الحديثة في القرن 17، وهو الملقب بابو الفلسفة الحديثة، ليأتي بعده كل من باروخ سبينوزا (بالهولندية: Baruch Spinoza) وغوتفريد فيلهلم لايبنتس (بالألمانية: Gottfried Wilhelm Leibniz) لتأييدها والدفاع عنها، وفي ما يلي استعراض لبعض الجوانب ذات الصلة بظهور العقلانية الديكارتية:

رينيه ديكارت هو أول الفلاسفة العقلانيين الحديثين؛ حيث اعتقد أنّ السبيل الوحيد لتحصيل الحقائق الأبدية هو العقل، وليس الخبرات والتجارب الحسية، التي اعتبرها غير ضرورية، والحقائق الأبدية التي يُشير إليها في هذا السياق تشتمل أيضاً على حقائق الرياضيات والأسس التي تقوم عليها العلوم، بينما الفيزياء تحتاج إلى الخبرة لمعرفة، التي يستعان فيها كذلك بالمنهج العلمي. وعلى أساس اعتقاده هذا، يرى ديكارت أنّ العقل وحده هو الذي يقرر المعرفة، وأنّ هذا الأمر لا يجري بتدخلٍ من الحواس؛ أي أنه يجري بشكل مستقل عنها.

بالإضافة إلى ذلك، اعتقد ديكارت أنّ الأفكار الفطرية التي تسكن العقل قبلها يكون مصدرها الاله، في حين أنّ الأفكار الأخرى تُستمد من التجارب والخبرات الحسية، في حين أنّ هناك بعض الأفكار تكون من نسج الخيال (أفكار وهمية)، ووفقاً لديكارت، تعتبر الأفكار العقلية الأفكار الوحيدة الصالحة والصحيحة.

أسس العقلانية الديكارتية

ثنائية النفس والجسد: تتميز النفس عن الجسد بأنها خالدة، في حين أنّ الجسد فانٍ، وتتميز كذلك عنه بأن الإنسان عندما يفكر، فهو يفكر بنفسه، وليس بجسده؛ فالجسد أشبه ما يكون بألة تخضع لقوانين الطبيعة، ولا تُفكر، على عكس النفس، التي على الرغم من أنها لا تُرى، إلا أنها تحتوي الإنسان، وبها يمارس التفكير.

الشك: تكمن أهمية الشك من وجهة نظر ديكرت في أنه يُغري المعرفة، كما أنه الخطوة الأولى في رحلة البحث عن الحقيقة، كما أنّ الشك دليل على وجود الإنسان، وعلى هذا الأساس يجب ألا تكون هناك قيودٌ تحد من ممارسته . وادا كان ديكرت يبدأ من الشك فانه يصل الى حقيقة أن العقل المفكر هو الحقيقة الأولى المتفق عليه وفق الكوجيتو (أنا أفكر إذن أنا موجود) ، ولهذا فان ديكرت لا يبدأ من الشك لينتهي الى الشك، بل يبدأ من الشك وصولا الى الحقيقة. ومن يسمى شكه بالشك المنهجي.

المنهج الديكرتي: يُعلي المنهج الديكرتي من شأن العقل، والنظام الرياضي، بحيث يجعل من دقة نتائج الرياضيات منهجا للعقل يهتدي به في الوصول الى الحقائق الثابتة، ويعتبره السبيل للوصول إلى الحقيقة. وفي سياق متصل، رفض ديكرت فكرة أنّ عقل الإنسان يكون كصفحة بيضاء عند الولادة؛ حيث اعتبر أنّ المرء يولد وفي عقله أفكارٌ فطرية قبلية خاصة به، وأنّ التفكير الفطري هو الذي يُكسب الإنسان المعرفة¹

¹ عن مقالة فلسفة ديكرت العقلانية، لهدى الطلافح (بتصرف):

<https://alfalsafah.com/g/%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D8%A9->

<https://alfalsafah.com/g/%D8%AF%D9%8A%D9%83%D8%A7%D8%B1%D8%AA->

<https://alfalsafah.com/g/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%82%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9>

عقلانية هيغل :

تتمحور عقلانية هيغل (المثالية المطلقة) حول أن العقل هو المحرك الأساسي للواقع والتاريخ، متجسداً في مقولته الشهيرة "كل ما هو عقلي واقعي، وكل ما هو واقعي عقلي". يرى هيغل أن الوجود يتطور جدلياً (ديالكتيك) عبر التناقضات نحو "عقل كلي" أو "روح مطلقة"، يبدأ من جدل الفكرة ونقيضها التي تنتج دائماً مركبا بينهما ، حيث يُعتبر التاريخ مساراً واعياً نحو الحرية والوعي بالذات، وتُفسَّر فيه كافة الأحداث والظواهر، مهما بدت عشوائية، كخطوات ضرورية ومنطقية في مسيرة تطور العقل.